حظر الحركة الإسلاميّة -رؤية في سياق تدافُعيّ

صالح لطفي*

مقدّمة

في سبعينيّات القرن الماضي، ظهرت الحركة الإسلاميّة. ظهرت في خضمّ أحداث عِظَام عاشتها المنطقة بدءًا من وفاة عبد الناصر عام 1970 وبدايات أفول المدّ القوميّ (الذي تزامن مع خسارة حرب العام 1967)، وحرب رمضان عام 1973 التي أعادت للعرب بعضًا من ماء وجوههم، وبداية الحرب الأهليّة اللبنانيّة عام 1975 التي أسّست لواقع فلسطينيّ أفضى إلى أوسلو عام 1993 مؤسِّسًا لانشقاقات داخل مكوِّنات الشعب الفلسطينيّ في الداخل والشتات، مقزِّمًا القضيّة الفلسطينيّة، وأخيرًا ميلاد الثورة الإسلاميّة الشيعيّة الإيرانيّة عام 1979 ليبلغ صدى تأثيرها في عالَمَيْنا العربيّ والإسلاميّ كلّ وبر وقفر... وعلى مستوى الداخل الفلسطينيّ، كانت أحداث يوم الأرض التي أسّست لانتهاء عصر الوصاية الصهيونيّة -ممثّلًا بالقوائم العربيّة -والتبعيّة على الداخل الفلسطينيّ، ووضع اللبِنات التأسيسيّة للظاهرتين الوطنيّة والقوميّة في الداخل الفلسطينيّ في سياقاتها الحاليّة التي نعيش... في ظلّ هذه التحوّلات الكبيرة ظهرت الحركة الإسلاميّة عبر نشاطات قام بها ثُلّة من العلماء والدعاة.

منذ ذلك التاريخ حتّى حظر الحركة الإسلاميّة في السابع عشر من نوفمبر عام 2015، جرت مياه كثيرة في نهر هذه الحركة، ويمكننا أن نرصد ثلاث محطّات مفصليّة في مسيرتها: المحطّة الأولى ما يُطلق عليها في الأدبيّات العامّة أسرة الجهاد عام 1981؛ المحطّة الثانية الانشقاق التاريخيّ عام 1996؛ المحطّة الثالثة اعتقالات قيادات الحركة وبعض من رؤساء مؤسساتها عام 2003. هذه المحطات الثلاث تركت بصماتها بقوّة على المنهجين الفكريّ –الدعويّ /التربويّ والمنهج السياسيّ /المجتمعيّ لدى الحركة الإسلاميّة.

إسرائيل والحركة وتأسيسيّات التدافع الحضاريّ

في المنظور الحضاريّ، نعتبر قيام إسرائيل عام 1948 انتصارًا للحضارة الغربيّة على الحضارة الإسلاميّة الكلاسيكيّة (وعلى نحوٍ أكثر دقّة: على الشقّ السنّيّ في الحضارة الإسلاميّة). وفي السياق ذاته، نعتبر ميلاد الحركة الإسلاميّة في سبعينيّات القرن الماضي تحقيقًا لسُنّة التداول والمزايلة التي تؤسّس لميلاد جديد لمن أدرك وفَقِهَ منطقَ صيرورات التاريخ ذلكم أنَّ حركة الحياة تنبئ بحتميّة المداولة التاريخيّة، والحركة الإسلاميّة في الداخل الفلسطينيّ لم تكن بدعة من الحركات في مشرقنا العربيّ، بل هي إفراز طبيعيّ لتحوُّلات جرت في "منطقتنا" (نجْد والحجاز واليمن والهلال الخصيب والشام) بدأت منذ أواخر القرن السابع عشر.

من حيث الوجهة الفكريّة، مرّت الحركة الإسلاميّة في الداخل الفلسطينيّ في ثلاث مراحل من التطوُّر الفكريّ ولمَّا يستوِ عودها بعد، ويبدو أنّ الحظر جاء ليعرقل إتمام هذه الصيرورة عدّة سنين. فقد مرّت الحركة في مراحل التأسيس الفكريّ المستمَدّ من الأدبيّات الإسلاميّة الكلاسيكيّة والأدبيّات الإسلاميّة الثوريّة. ومن أهمّ سمات تِلك المرحلة التقوقع على الذات، وترسيم رؤى المستقبل من منظور "مغلق" ينظر إلى الآخر أيًّا كان نظرات الريبة والتشكيك وفي لحظات كثيرة نظرات تخوين. وانتهت هذه المرحلة التي أرهقت جيل الصحوة الأوّل بالخروج من الشرنقة إلى فضاء العمل العامّ، وتَبَنّي نظريّات وسياسات في العمل اتّسمت بالتطوُّرَيْن الفكريّ والفقهيّ، وانتهت بخلاف داخليّ أفضى إلى انشقاق في الحركة على خلفيّة تِلك الرؤى والأفكار والتصوّرات، حيث جنح فريق إلى الإيمان بضرورات التعايش مع الواقع الراهن، فيما رأى فريق آخر أنّهم يمكنهم العيش مع هذا الواقع وبدونه في الوقت نفسه. ثمّ كانت المرحلة الثالثة التي حدثت فيها تدافعات داخل الحركة الإسلاميّة -ويزعم كاتب هذه السطور أنّها لمّا تنتهِ بعد، وقد جاء الحظر ليقطع هذه المسيرة الخلّاقة في صيرورة الحركة.

منطق التدافع في الحركة الإسلاميّة له شواهد كثيرة تبدأ من الإيمان بضرورات العمل من منطلق السلميّة والعمل السلميّ والنضالات المنبثقة عنه، وهو ما استدعى الحركة الإسلاميّة لإنشاء العشرات من الجمعيّات والمؤسّسات واللجان التي نشطت وعملت بناء على هذا المنطق الجامع بين قانونيّة العمل وآليّاته.

الأفكار لا تموت...

حظْر الحركة الإسلاميّة هو جزء من مسيرة الصراع والتدافع الجاري بين المؤسّسة الإسرائيليّة والحركة الإسلاميّة باعتبارهما ممثّلَيْن لحضارتين مختلفتين تتصارعان على هذا الأرض منذ لحظة ميلاد الإسلام إلى هذه الساعة، وباعتبار أنّ إسرائيل إفراز منهجيّ وذكيّ لتعاضد وتقاطع المصالح بين مجموعات استعماريّة أوروبيّة رأت في خلق إسرائيل الفرصة التاريخيّة لحلّ المسألة اليهودية، ومن ثَمّ استثمار واستغلال مقدرات وإمكانيّات إقامة دولة لليهود لمصالحها الكولونياليّة في المنطقة.

في تاريخ العلاقة بين الأفكار والمؤمنين بها، ثمّة سرّ يكمن في خلود هذه الأفكار، ولا سيّما إذا كانت هذه الأفكار قد طبّقها مَن آمنوا بها. وتكون خلوديّتها أكثر تأكيدًا إذا كانت هذه الأفكار ذات بعد ما ورائيّ. ولذلك فالأفكار المستمَدّة من الأديان تُعتبر أفكارًا خالدة؛ فإذا كانت إسرائيل قد قامت بناءً على رؤى فكريّة مسيانيّة -ثاويّة في النفوس استمرّت آلاف السنين -تواطأت مع ظرفيّات كولونياليّة-، فمن باب أَوْلى أن نقول إنّ الفكرة الإسلاميّة الحركيّة أكثر خلودًا بعد أن مرّت في عمليّات الابتلاء والصَّهْر. ولذا، فيوم تحظر إسرائيل الحركة الإسلاميّة إنّما هي تحظر تنظيمات وهياكل لا تحظر فكرًا ولا روحًا. ولذلك تظنّ إسرائيل أنّها بحظرها هذا حقّقت نقاطًا مرحليّة في إدارة دفّة الصراع وهي غير متنبّهة إلى صيرورات التدافع الكونيّ في عالم الأفكار الذي يؤكّد أنّها لا تموت، ثمّ تعود أقوى عودًا ممّا كانت عليه. ولأنَّ الصراع بين إسرائيل والحركة الإسلاميّة مسلَّمة حتميّة في ظلّ رفض الحضارة الغربيّة التعايشَ مع الحضارة الإسلاميّة، باعتبار أنّ إسرائيل في منطقتنا تمثّل اليوم رأس حربة هذه الحضارة ودليل انتشائها وانتصارها حتّى هذه اللحظات، فإنَّ الحظر يأخذ بعدًا أكثر تشدُّدًا وتطرُّفًا، ويتّجه نحو مزيد من الصدام يتناسب مع جدليّة العلاقة القائمة بين الطرفين.

صراع وتَدافُع

منذ أن ظهرت الحركة الإسلاميّة على خارطة الحياة السياسيّة والمجتمعيّة في الداخل الفلسطينيّ، لم تتوقّف السلطات الإسرائيليّة ولو لحظة واحدة عن ملاحقتها وملاحقة كوادرها وتدارُس حظرها مرّات عديدة. وذلك مؤشّر واضح إلى الحالة الصداميّة التي فرضتها السلطات على الحركة منذ نشأتها الأولى وإلى لحظة الإخراج. وهذه المسيرة تخلّلتها تموُّجات وصلت حِدّتها في بعض الأحيان إلى اعتقال بعض قياداتها لسنوات، ولعلّ المُتابع لسلوكيّات السلطات الإسرائيليّة في المسجد الأقصى المبارك -على سبيل المثال لا الحصر- ومنعها المصلّين من الصلاة، واستفزاز المرابطين والمرابطات واقتحامات المسجد يوميًّا، لعلّه تَبَيّن بعضًا من سلوكها الصداميّ الذي يأخذ أبعادًا أكثر دمويّة في مناطق قريبة منّا.

في رصدنا للعلاقة بين المؤسّسة الإسرائيليّة والحركة الإسلاميّة، سنجد أنّنا أمام سُنّتين من سُنن حركة الحياة: سُنّة المدافَعة التي تتعاطى معها الحركة الإسلاميّة كسبًا ودفعًا، وسُنّة الصدام والصراع التي تتعاطى معها إسرائيل كذلك، إذ إنّ المؤسّسة الإسرائيليّة تستدعي الصدام لأنّه الأسهل بالنسبة لها، وهي التي قامت أساسًا على هذا المنطق الذي لا تفهم سواه والذي من خلاله يمكنها أن تتعايش معه وبه (انظر تصريحات نتنياهو الأخيرة حول مكانة إسرائيل من حيث القوّة وتدريجها بالمرتبة الثامنة، وقوله إنّ العالَم يهرول لبناء علاقات معها لأنّها دولة قويّة). هذا إلى جانب أنّها تعمّدت الصدام مع الحركة الإسلاميّة لأنّها تمارس دور العَرّاب في المنطقة -ويشاركها في ذلك عدد من الأنظمة العربيّة الفاشيّة- كجزء أساسيّ من استحقاقات وجودها والحفاظ عليه.

لقد كان صدام إسرائيل مع الحركة الإسلاميّة مبكرًا تبعًا لقناعاتها وإيمانها بأنَّ العلاقة مع الحركة الإسلاميّة هي علاقات صدام لا علاقة تدافع، بينما نظرت الحركة الإسلاميّة إلى العلاقة على أنّها تدافُعيّة لا صداميّة من منطلق قناعاتها في الواقع المَعيش وظرفيّته، ومن منطلق أنّها قرّرت نهجًا سلميًّا ابتدأته بعد مراجعاتها العميقة لمُخْرَجات أسرة الجهاد انتهت بها إلى قناعات النضال السلميّ، وهو ما يستوجب آليّات وميكانيزمات تتساوق مع منطق هذه القناعات؛ ولذلك جاءت ممارسات الحركة من خلال تنزيل أفكارها عبر وسائل مشروعة تقرّها المؤسّسة الإسرائيليّة سواء أكان ذلك من خلال العمل الأهليّ أم من خلال العامّ.

حظر الحركة الإسلاميّة - التدافع الكونيّ وخسارة إسرائيل

من المهمّ الإشارة إلى أنَّ الحظر جاء في سياق تفاعلات دوليّة وإقليميّة، كما جاء في سياق تحوُّلات يمرُّ فيها المجتمع الإسرائيليّ تنزع نحو التطرّف والتشدُّد، وهو ما يعمل اليمين على استثماره بغية تحجيم المجتمع العربيّ في الداخل الفلسطينيّ، والعودة به قسرًا إلى مربّع الحكم العسكريّ ولكن بقفّازات جديدة تجمع بين المنطقِ الفاشيّ المنتشر في الرأسماليّات المتغوّلة في الغرب والولايات المتّحدة، والدينِ برسم ارتباطه بالنخب الحاكمة والمتنفّذة في المجتمع الإسرائيليّ، وهو ما يُسرّع الاتّجاه صوب فاشيّة ستصل بنا قريبًا إلى حدّ نزع شرعيّة وجودنا على هذه الأرض تمهيدًا لتحويلنا إلى رعايا، وكلّ ذلك يجري تحت لافتة الدفاع عن الديمقراطيّة -وهذه الذريعة هي الوصفة الأكثر شيوعًا في الأنظمة الفاشيّة في لحظات تحوُّلها من دولة "ديموقراطيّة" إلى دولة فاشيّة.

لم يكن إخراج نتنياهو وحكومته الحركةَ الإسلاميّة مجرّد عمليّة سياسيّة يمارس فيه نتنياهو جمع النقاط، بل هي عمليّة متداخلة على أكثر من مساحة وموقع وشركاء، وخدمت أكثر من طرف في المنطقة والإقليم، وكان إخراجها بطاقة عبور وتجديد ثقة بين منظومات تتخلّق من جديد في منطقتنا التي أُفرزت على إيقاعات سايكس-بيكو تسعى لمَوْضعة "المؤسَّسة الإسرائيليّة" في المنطقة من جديد، ولكن هذه المرّة ممزوجة بنكهة الاعتراف "بإسرائيل" والقبول بها في مرحلة ما بعد سايكس-بيكو [الثانية].

الحركة الإسلاميّة ككيان حركيّ نهضويّ ظهر في سبعينيّات القرن الماضي عبّرت عمليًّا عن الوجدانيّ الدينيّ داخل مجتمعنا، وعملت على تثوير هذا الوجدان وتنميته التنميةَ الصحيحةَ من غير إفراط ولا تفريط، ووضعت منذ مسيرتها مجموعة من الثوابت الفكريّة التي تؤسّس لمسألة التدافع الحضاريّ مع الآخر الإسرائيليّ برسم وجوده على أرضنا الإسلاميّة العربيّة الفلسطينيّة، وهو ما يحتّم التعامل والتعاطي معه، ولا سيّما أنّ هذا الإسرائيليّ نجح في تأسيس دولة ناهضة تتمتّع بميكانيزمات القوّة والتقدّم. بناء على هذا المنطق والتحليل، إنّ مسألة المواجَهة مع الحركة الإسلاميّة بوصفها ممثِّلة لبُعدٍ حضاريّ آخر مرفوضٍ حضاريًّا هي مسألة وقت. ولم يكن حظر الحركة مسألة سياسيّة فحسب، بل هو كذلك مسألة تعبّر عن حجم الصراع الحضاريّ الدائر في منطقتنا.

التدافُع الحضاريّ من مستلزماته الطبيعيّة أنّه عقلانيّ لا يحمل معاني الإفناء والإبادة، بل يحمل معاني التزاحم والحركة والتموُّج، ومَهَمّة التدافع الأساسيّة وقف الإفساد والفساد، والتعايش مع الآخر، وهذه السُّنّة هي من سُنَن الارتكاز الحضاريّ التي بدونها لا وجود للحضارات، وذلك بحكْم أنّ التدافع حين يحصل يستفيد من نتائجه وتداعياته الطرفان المتقابلان في مسألة التدافع. ولذلك، فإسرائيل هي الخاسر كدولة وكمجتمع في هذا السياق -سياق التدافع الكونيّ الجاري هذه اللحظات وعودة العرب إلى ذاتهم-؛ هي الخاسر الأكبر رغم أنَّ ظاهر الأمور يقول غير ذلك.

خلاصة

إسرائيل، بحكم إيمانها بصيرورات الصراع، تؤمن أنّ من متطلّباته الحسمَ الذي يبلغ حدّ الإفناء والإبادة. وهي، تحت لافتة الحفاظ على وجودها، تمارس كلّ أنواع التدمير ضدّ الآخر، كهدم البيوت، ومصادرة الأراضي، وقتل البشر، وسَنّ قوانين تُحقّقُ الفصلَ العنصريّ وتضمن السيادة المطلقة على الأرض ومقدراتها وما عليها من بشر وحجر وزرع، وهو ما سيؤدّي -وَفق منطق التجريف السياسيّ والماديّ- إلى تأسيس منظومات تؤمن بأنّ العلاقة مع هذه الدولة يجب أن تكون بنفس العملة وَفق منطق الفيزياء وعلوم الاجتماع.

*** صالح لطفي هو باحث وكاتب. شغل منصب مدير مركز الدراسات المعاصرة قبل حظره في تشرين الثاني 2015.**